اللغة والدلالة
من السلوك اللغوي إلى التمثلات الذهنية
– مقاربة معرفية–

الباحث محمد شطاط
طالب باحث بسلك الدكتوراه
جامعة محمد الخامس، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط
المغرب

إن ما كشف عنه النهج التجريبي من آليات معرفية لرصد السلوك البشري عبر الدراسات التي أجريت ضمن بحوث علم النفس، سيتحول إلى سبيل لا محيد عنه لدى تلاميذ CHOMSKY (تشومسكي) في مقاربة الدلالة، والتمسك بهذه النتائج العلمية يعكس خلافا جوهريا بين تشومسكي وتلاميذه، لقد كان تشومسكي متأثرا بالمنهج العقلاني الديكارتي في ربط اللغة بالذهن، على اعتبار أن العمليات العقلية المنتجة للغة "آليات منفصلة عن بقية الآليات العقلية التي تخص الإدراك، والتصور، والخيال، وجل العمليات التي من صميم أبحاث علم النفس المعرفي" [(1)]، والتي يخصها هذا العلم المعرفي بعناية فائقة لدورها المشهود في المقولة البشرية بناء على نتائج مخبرية، عكس توجهات تشومسكي الذهنية، وفكرة تناول اللغة تناولا ذهنيا " ترجع في جذورها إلى DESCARTES (ديكارت) الذي يؤكد أن تأويلنا للعالم مبنين جزئيا على أنساق تمثيلية تأتي من بنية الذهن نفسه، ولا تعكس بصفة مباشرة البتة، شكل الأشياء في العالم الخارجي"[(2)]، هذا التأثر الواضح بعقلانية ديكارت جعل تشومسكي مصرا على الذهنية في تناول اللغة ضمانا للنهج العلمي في التناول، إيمانا منه بأن تدخل المظاهر الجسدية كالذاكرة أو السياقات الاجتماعية كسياق الخطاب، يفقد الدراسة المنهجية العلمية التي هي أخص خصائص اللسانيات التوليدية التي تهدف في أساس وجودها إلى " أن تصف في صيغة البنية ما يعرفه الكائن البشري (دون وعي منه في الغالب) معرفة تجعله قادرا على تكلم لغة طبيعية، وتوصف هذه المعرفة بواسطة نحو، وهو عبارة عن مجموعة متناهية من المبادئ الصورية التي تصف إجمالا المجموعة اللامتناهية من الأبنية التي يحكم المتكلم بكونها تكون جملا ممكنة في اللغة" [(3)]، بمعنى تحديد أوليات تعلم اللغة، والتي تتجلى في اكتساب القدرة على التركيب. ولا شك أن منطلقات تشومسكي في عزل اللغة عن ملكات ذهنية أخرى، يعود إلى رغبتة الأصيلة في دراستها دراسة علمية عبر صورنتها بمنطق رياضي صارم، انطلاقا من كونها تمثل الخاصية التي بها يعرف الإنسان، ويتميز عن باقي الكائنات الأخرى، في محاولة منه لصياغة قواعد عامة ناظمة لكل اللغات كقدرات بشرية فطرية، ف"كل اللغات الطبيعية تتكون من نظام عام محدد هو النحو الكوني الذي يمتلكه الكائن البشري حصرا عبر إمكانيات فطرية" [(4)]، على اعتبار أن اللغة هي أبرز ما يميز الكائن البشري، لذلك فلا غرابة في البحث عن أوليات تكوين الجمل عبر آليات صورية محددة. ولتأكيد هذا النهج، تحدث تشومسكي عن وجود أجزاء خاصة ومعزولة في الدماغ لاكتساب اللغة/التركيب، بعيدا عن أي ملكات أخرى، ومن ثم كان من المشروع عنده الاستبعاد الأولي للاهتمام بالدلالة، لصعوبة دراستها دراسة علمية في النحو التوليدي، تاركا إياها للصوريين الذين لا يهتمون في قواعدهم بالطبيعة الذهنية للإنتاج اللغوي أو تفسيره. وبهذا الاختيار أقصى "كل مظاهر اللغات الطبيعية الحقيقية التي تشوبها الدلالة أو الذريعيات أو جوانب سيرورات إنجاز اللغة أو قيود الذاكرة – كل ما يشتم منه الجسد أو التواصل بين الناس أو العالم الفيزيائي غير الذهني — يقصى من ماهية (اللغة)وليس من التركيب" [(5)] في شيء، على اعتبار أن " النحو الكلي مستقل سببيا عن باقي الذهن والجسد، ويبدع كل البنيات اللغوية (النووية) بدون أن يكون له أي دخل خارجي من أي شيء آخر في الذهن أو في الدماغ أو في العالم الخارجي " [(6)]، تأكيدا على وجود " مكون توليدي واحد هو التركيب، تشتق منه تأليفية المكونين الدلالي والصواتي المعتبرين تأويليين"[(7)]، هذا الإقصاء التام للجسد وأنساقه الإدراكية من قبل تشومسكي في ظل النتائج التجريبية الناطقة بحتمية دور الجسد في تشكيل المعنى، قاد تلاميذه إلى مفارقته في كيفية دراسة اللغة بتوطين مفهوم التجسد في تحليل المعنى، من خلال توسيع نطاق المدرسة التوليدية عبر نظريات لسانية مفهومية تعنى بالدلالة في المقام الأول، وتعتبرها جزءا من التصورات المعرفية، بحيث " يعكس الشكل النظمي طبيعة التفكير " [(8)]، مؤسسين بذلك لدراسة

اللغة من زاوية معرفية بالتركيز على "كل الملكات أو الآليات، من قبيل الإدراك والانتباه والمفهمة والمعنى والمقولة والخطاطات وزاوية النظر" [9]، لإحلال مبحث الدلالة المركزية التي يستحقها في البحث اللساني كقدرة توليدية لها القدرة على تمثيل التصورات، انطلاقا من أن الغاية الفضلى للغة هي التواصل، والهدف الأسمى من التواصل هو كشف الرسائل والحقائق والبنيات التصورية، ولا يتحقق ذلك إلا بتفاعل الآليات الذهنية على تعدد وظائفها لإنتاج الدلالة " بمعنى إعادة إدماج النحو التوليدي بما في ذلك نظرية الدلالة، في العلوم العصبية والمعرفية بكيفية تجعله يتلاءم بصورة طبيعية مع الهندسة الواسعة للذهن "[10]، ليكون ملكة من ملكات متعددة تتفاعل باطراد للكشف عن المعنى، انطلاقا من أن اللغة تستعمل "في الإخبار عن المدخلات الحسية" [11] كالبصر والسمع... وتأكيدا على مركزية دور وسائل الإدراك التي هي مظاهر جسدية في تكوين البنية الدلالية والتفاعل النشط بين العالم الحقيقي كما هو، والعالم المسقط كما يكونه الذهن، وما ينتج عن هدا التفاعل من اختلاف في درجة الإدراك لنصل إلى أن "الدلالة والنحو لا ينفصلان، والمقولات النحوية تنشأ من المقولات الدلالية"[12]، ومن هنا ينشأ مفهوم التجسد الذي يعتبر أساسيا في اللسانيات المعرفية، انطلاقا من هذه الأرضية يقارب هذا المقال أسئلة رئيسة من قبيل : ما المقصود بالقدرة اللغوية؟ وكيف يمثل الشكل اللغوي المعنى النفذسي؟ وإلى أي حد يمكن مقاربة الدلالة مقاربة علمية وفق قواعد ثابتة؟ من خلال المحاور الآتية:

المبحث الأول: مفهوم القدرة اللغوية

إن الحديث عن القدرة اللغوية يحيل على ثنائية تشومسكي المتمثلة في القدرة competence والأداء performance، حيث أشار من خلالهما " إلى ضرورة إدراك موضوع اللسانيات كحقيقة ذهنية، بدل النظر إليها كسلوك لساني قابل للملاحظة"[13]، أي عمل على تحرير اللغة من كونها سلوكا يتعلمه الفرد من محيطه ويرده اليه كما هو الحال في المدرسة السلوكية behaviorism، بمايمثله ذلك من استكانة المتعلم للتقليد والسلبية، إلى كونها قدرة تمثل ما هو كامن ومتحكم في استعمال اللغة، وفق قواعد صارمة، وقد أولى تشومسكي القدرة اللغوية اهتماما كبيرا، بينما الأداء الذي هو استعمال اللغة في التواصل، لم يخصه بكبير عناية، لأنه متعلق بالاستعمال، والموقف الأساسي في النحو التوليدي يتلخص في " أن اللغة تدرس لا من حيث كونها ظاهرة مجردة أو مواضعة اجتماعية، وإنما من حيث ما يفهمها به الناس ويستعملونها، أي أن المشغل الأساسي يتمثل في ما به تحل الملكة اللغوية في الدماغ. "[14] تلك الملكة التي يتوفر عليها جميع أفراد الجنس البشري بالتساوي، وتبعا لذلك، عرفت اللغة بأنها" القدرة اللغوية اللاواعية التي تمكننا من إنتاج عدد لا متناه من الجمل"[15]، فالقدرة لا تتجلى عند تشومسكي فيما هو تواصلي أدائي، بل تنحصر في القدرة على التوليد التركيبي انطلاقا من قواعد محددة، لإنتاج عدد لا متناه من الجمل والتراكيب، وهي بطبيعتها قدرة مضمرة، تختلف في كفاءتها من مستعمل لآخر، يجب أن تدرس دراسة علمية. وبذلك " تحول الاهتمام عن تحليل الكثير من الأمثلة إلى إنشاء القواعد"[16]. وتشومسكي بنزعته اللغوية التوليدية هذه، يختلف عن اللسانيات البنيوية structuralism التي انشغلت بالوقائع اللغوية على حساب النظام اللغوي، إذ" تحول الاهتمام مع اللسانيات التوليدية إلى مستويات أخرى كالمستوى الميتودولوجي والإبستمولوجي، فصيغت أسئلة وقضايا جديدة من نمط القيود الصورية على بناء النماذج، والترييض، والنمذجةالحاسوبية، ومستويات التفسير"[17] بمعنى الميل نحو القواعد الكلية لنظرية اللغة، التي كان تشومسكي منشغلا بها، فاهتم " بالتنظيم الصيغي للغة، وبتبسيط أكثر يمكن القول إن معرفة اللغة مرتبطة بمعرفة النحو، أي بالجهاز العام الذي يسمح بإنتاج عدد غير متناه من الملفوظات، انطلاقا من عدد محصور من العناصر"[18]، سعيا إلى عقلنة وعلمية دراسة اللغة، انطلاقا من أن اللسانيات علم، ومن ثم فإنها تهتم " بماهية اللغة أي التركيب الخالص، والظواهر التي تخرج عن ماهية اللغة لا يجدر بها أن تسمى لسانيات"[19]، بهذا المنظور، حدث التحول الهام في دراسة اللغة " من العناية باللغة إلى العناية بالنحو، وهو تحول من تجميع العينات وتنظيمها إلى دراسة الأنساق التي توجد فعلا في الدماغ وتساهم في تفسير الظواهر الملاحظة" [20]، سعيا للوصول إلى قواعد ناظمة للظاهرة اللغوية عامة، وتشومسكي بهذا التوجه يكشف تصورا مفاده، " أن اللغة إنما تنتج على مستوى الذهن، وأن هناك آليات محددة تولد الجمل اللامتناهية والمقبولة نحويا"[21]، والاشتغال يجب أن ينصب على معرفة الآليات التي تعمل بها الملكة اللغوية لتفسيرها وتقعيدها، في ابتعاد تام عن الأنساق الجسدية الأخرى، ف " اللغة ملكة ذهنية مستقلة عن الذاكرة، مستقلة عن الانتباه، مستقلة عن الإدراك. ..عن التفاعل الاجتماعي، عن المعرفة السياقية، عن حاجات التواصل بين الأفراد" [22]، وهذه إشارة إلى محاولة معرفة

نظام اللغة، أو ما سماه تشومسكي النحو الكلي الذي يتميز بكونه " مستقلا سببيا عن باقي الذهن والجسد، ويبدع كل البنيات اللغوية (النووية) بدون أن يكون له أي دخل خارجي من أي شيء آخر في الذهن أو في الدماغ أو في العالم الخارجي "[23]، وهو الخاصية التي تشترك فيها كل اللغات بتوفرها على عناصر محددة للتركيب، بمعنى " التحول في تحديد الهدف الأول للنظرية اللسانية في المبادئ الثاوية وراء الوحدات الكلامية، لا معاينة الوحدات الدالة الصغرى من صوتيات وصرفيات"[24] كما هو الشأن في اللسانيات التصنيفية، لأن المعايير النحوية جميعها نتجت عن أسس كلية في الذهن البشري، وهنا تتمثل الفردية في اللغة المضمرة" فالأطفال المنتمون إلى مجموعة لغوية واحدة، يبني الواحد منهم نحوا ذهنيا يشبه النحو الذهني الذي يبنيه الآخر، رغم تعرضهم لتجارب مختلفة متباينة، وهذا أساس يثبت به وجود آلية الاكتساب اللغوي بشكل فطري" [25] وهذا ما يسعى تشومسكي لإثباته، تسهيلا لتعلم اللغة من منطلقات ذهنية، أهم ما يميزها النشاط الفردي. ف"المبادئ الكونية تمكنه من الاكتساب مطلقا، والبرامترات تمكنه من اكتساب لغته بخصوصيتها المتصلة بالمعجم فيها، وبعض القواعد الجارية فيها...ومن غايات النظرية اللسانية الكشف عن تلك المبادئ والبرامترات"[26]. تلك المبادئ الكونية تسهل على الطفل عملية اكتساب اللغة ذاتيا، بدلا من الاعتماد على المحيط الخارجي لاكتسابها، فالتركيز عند تشومسكي لا ينصب على السلوك اللغوي، بل على النظام الذهني المنتج للسلوك اللغوي، إظهارا للقدرات الذهنية النشطة، التي تتصور فيها " العملية التكرارية المسماة (ضم)merge هي أساس القدرة التي نملكها على إنتاج تعابير لا محدودة " [27]، عكس السلوكية التي تنظر للعقل البشري كمستقبل للمثيرات، فتجعله عقلا سلبيا ومتلقيا ومنتظرا لنشاط الآخرين. وتأكيدا على نشاط الذهن وإقداره على أداء مهمته بكفاءة، اعتمد تشومسكي في نظريته مفهومين أساسيين يمثلان حجز الأساس هما:

التوليد والتحويل، فالتوليد قدرة إبداعية خلاقة وفق قواعد السلامة التركيبية، بحيث يمثل الكفاءة الكامنة التي ينطلق منها المتكلم المثالي للغة. وينبني على مفهوم التوليد مفهوم آخر، هومفهوم التحويل، أو القدرة التحويلية المرتبطة بالبنية السطحية للجمل، التي لا تتم إلا عبر منظومة من القواعد والقيود، حيث يتخير المتكلم الصيغ التي تنتظم بها الجمل التي تؤدي أحداثا كلامية بمهارة واقتدار، سواء تعلق الأمر بالعناصر الأساسية للجملة، مثل الفعل verb، والفاعلsubject ، أو عناصر اختيارية كالسؤال والرجاء والمبني للمعلوم والمبني للمجهول، باعتبار "أن الأداء الكلامي هو ماكينة تهدف إلى أداء مهمة احتواء الطاقة اللغوية الكامنة بالقوة المحركة (الجهاز النطقي)" [28]. يتبين بجلاء مما سبق، أن القدرة اللغوية عند تشومسكي تعتمد على جناحين، الأول، هو تحديد الآليات المتحكمة في إنتاج اللغة، عبر تشخيص القواعد الكلية لاكتسابها. والثاني، الجانب الأدائي الذي يمثل التحكم في اللغة من خلال إنتاج جمل سليمة نحويا، بعيدا كل البعد عن وظيفة اللغة، أو الجانب الدلالي فيها، حيث اعتبر " النحو التوليدي في معظمه نظاما افتراضيا يسعى إلى تعيين الجمل الممكنة على وجه نهائي دون النظر إلى حدوثها في الواقع"[29]. وسعيا إلى ضبط قانون اللغة، حاول تشومسكي أن يبسط قواعدهاإلى أبعد الحدود، من خلال برنامجه الأدنوي الذي يضمن تطور النظام اللغوي لأنه " حتى يكون التركيب قابلا للتطور يجب أن يكون التركيب ذاته بسيطا للغاية"[30]. أمام هذا التأصيل العلمي الذهني المختزل للقدرة اللغوية في التركيب من قبل تشومسكي، وفي سياق المنجزات العلمية التي أبانت عن الجوانب النفسية في إنتاج اللغة، اهتم علماء اللسانيات المنشغلين بالمنحى الوظيفي للغة بمفهوم آخر للقدرة اللغوية، والذي يتمثل في السعي لفهم دور اللغة في الاستعمال، والوقوف على الشروط الواجب توافرها لبناء الدلالة. سيرا على النهج الجديد في دراسة اللغة من خلال كل جوانبها، وخاصة الجانب التواصلي. بحيث يعطي هذا الجيل المعرفي الثاني من تلاميذ تشومسكي " للاستجابات التجريبية والعاطفية دورا في المعرفة أهم من الدور الذي أنيط بها لدى الجيل الأول الموصوف بتبني موقف معرفي حاسوبي"[31] تنظيري، بحيث تراعى الجوانب المتحكمة في إنتاج الجمل والهدف goal من إنتاجها في العملية التواصلية للوصول إلى المعنى.

ب–القدرة التواصلية.

مع هذا التوجه الجديد، لم تعد القدرة اللغوية منحصرة في التمكن من توليد الجمل بشكل لامتناه وفق قواعد السلامة التركيبية فحسب، بل تعدت ذلك إلى مراعاة الجوانب التواصلية، لما لها من أهمية في تطوير اللغة من جهة، على اعتبار أن " قواعد اللغة تتطور بتفاعلها داخل

المجتمع" [32] عبر التواصل الذي له الدور الأبرز في تطوير قواعد اللغة، ومن ثم فلا بد من إحلاله محله اللائق به دراسة وتحليلا، من خلال الاهتمام بما تحمله اللغة من رسائل تواصلية هامة، خاصة وأن التواصل يبرز مجمل القدرات الإنسانية المعرفية والمنطقية، أي أنه يعكس كفاءة الإنسان وملكاته العامة، لذلك حرصت النظريات اللسانية ذات التوجه الوظيفي التداولي التي استفادت من العلوم المعرفية، على الاهتمام بالجانب التواصلي للغة، ففي اللسانيات المعرفية اعتبرت المقدرة اللغوية" مقدرة عصبية أساسا، إنها القدرة على الربط عصبيا بين أجزاء الدماغ المعنية بالتصورات والوظائف المعرفية، كالانتباه والذاكرة، لتدفق المعلومات. ..وبين أجزاء الدماغ الأخرى المعنية بأشكال العبارة الصواتية والدلائل في لغات الإشارة وما شابهها" [33]. فالربط بين التركيب والدلالة ربط عصبي بالأساس، مما يفند أي محاولة للفصل بينهما، وهو أمر يقوي الجانب الوظيفي التواصلي للغة، الذي يتأسس على البنية التصورية التي هي " إطار ذهني لتخزين التجربة والربط بينها وبين الذاكرة المرحلية وخطط العمل المستقبلي، كما أنها القاعدة الصورية لعمليات التفكير المنطقي والاستكشافي على حد سواء.. إنها البنية الذهنية التي ترمزها اللغة في صورة قابلة للتواصل"[34]، فالغاية القصوى لكل الملكات المعرفية، إقامة تواصل فعال بين المشاركين في اللغة، وما كان هذا ليتم إلا بفضل الوقوف على المعطيات العصبية المستفادة من اللسانيات المعرفية، التي بالإضافة إليها، استفاد المنحى الوظيفي أيضا مما أنتجه العلم التجريبي من مكتسبات منهجية في دراسة الدلالة كما يؤكدالزناد بالقول و" تتجلى إفادة اللسانيات العرفنية من العرفنة عامة ومن علم النفس المعرفي على وجه خاص، توافر المفاهيم المعتمدة في في مختلف النظريات من قبيل الخطاطة والتصوير الذهني. ..والطراز"[35] هذه الاستفادة وسعت النظر في مفهوم ووظيفة اللغة، وفي القلب من ذلك، القدرة التواصلية التي " تشمل المعارف التي تمكن مستعمل اللغة من التواصل (الناجح). إلى جانب المعرفة اللغوية، تشمل القدرة التواصلية معارف أخرى لا تقل أهمية كالمعرفة الاجتماعية والمعرفة الإدراكية" [36] فاللغة هنا لها دور وظيفي تواصلي، بحيث "تعتبر الملكة اللغوية مثلا، عديمة الفائدة بدون صلاتها بالفكر والإدراك والعمل"[37]. لأن بناء معنى تواصلي فعال " رهين بتفاعل الأنساق الذهنية في ما بينها... وبارتباط التفاعل بعمليات أساسية مثل الاستحضار والتعرف والانتباه، وبمختلف مستويات الذاكرة" [38] وإفراغ جميع ذلك في قالب لغوي معبر عن الهدف من التواصل، مما يعني" انتفاع الناس بالأنماط والتتابعات الشكلية في استعمال المعرفة والمعنى ونقلهما وتذكرهما"[39]. إنها خطوات لا محيد عنها لتحقيق التواصل، وكما ينقل المتوكل عن ديك(1989)أن القدرة التواصلية تتألف من خمس ملكات:"

أ-الملكة اللغوية: يستطيع مستعمل اللغة الطبيعية أن ينتج ويؤول إنتاجا وتأويلا صحيحين عبارات لغوية ذات بنيات متنوعة جدا ومعقدة جدا في كثير من المواقف.

ب-الملكة الاجتماعية: لا يعرف مستعمل اللغة الطبيعية ما يقوله فحسب، بل يعرف كذلك كيف يقول ذلك لمخاطب معين في موقف تواصلي معين، قصد تحقيق أهداف تواصلية معينة.

ج-الملكة المنطقية: بإمكان مستعمل اللغة على اعتباره مزودا بمعارف معينة، أن يشتق معارف أخرى بواسطة قواعد استدلالية.

د-الملكة الإدراكية: تمكن مستعمل اللغة الطبيعية من أن يدرك محيطه وأن يشتق من إدراكه ذلك معارف، وأن يستعمل هذه المعارف في إنتاج المعارف اللغوية وتأويلها.

هـ-الملكة المعرفية: يستطيع أن يكون رصدا من المعارف المنظمة، ويستطيع أن يشتق معارف من العبارات اللغوية، كما يستطيع أن يختزن هذه المعارف في الشكل المطلوب وأن يستحضرها لاستعمالها في تأويل العبارات اللغوية"[40]. ومن أجل تقييد هذه القدرات المختلفة وتوجيهها الوجهة التي تتحقق من خلالها وظيفة اللغة، تقوم أطروحة اللسانيات الوظيفية على ركائز أساسية كالآتي:

" أ- تسخر اللغة لتحقيق أغراض متعددة تتفرع جميعها عن وظيفة أصل واحد(وظيفة التواصل)،

ب- من شروط نجاح عملية التواصل مطابقة العبارة اللغوية لسياق استعمالها مقاما ومقالا.

ج- ارتباط بنية اللغة بوظيفتها ارتباطا تبعيا"[41] فتكون القدرة التواصلية بذلك، موجها نشطا لتحقيق رسالة اللغة، التي سعى الفكر اللساني الحديث إلى تحقيقها، حيث " تم نقل موضوع الدرس من المتن المنطوق/المكتوب إلى الذهن، بتعبير آخر، تم نقل موضوع الدرس من (الإنجاز)إلى (القدرة)التي تنوي خلف الإنجاز وتتيحه وتحكمه"[42]. ومن ثم تغيرت النظرة للملكة اللغوية لتصبح متميزة "كباقي الملكات، بمكونات ووظائف مخصوصة (ابنة بيئة) معرفية أعم، منها يستمد وجودها وبها يحدد تميزها، هي بيئة الذهن/الدماغ البشري المعرفية الشاملة، ومن ثمة ارتباط اللغة العضوي بالمعرفة، واندماج اللسانيات في العلوم المعرفية، بل باعتبارها علما معرفيا بامتياز" [43]. ليتم الحديث عن مسار جديد في تحليل المعنى، عبر تأصيل اتجاه يكرس تبعية أو ارتباط اللغة بالدلالة، لتخليص اللغة من النظرة الشكلية، تأكيدا على أن " النظرية اللغوية نظرية ذهنية/نفسية، لأنها تفترض أن اللغة موضوع نفسي...هدفها أن توضح الكيفية التي ترتبط بها اللغة والعالم ببعضهما في الذهن البشري"[44] لتكون اللغة معبرة وظيفيا عن طبيعة التصورات المستمدة من قدرات معرفية متعددة، كالأنساق والذاكرة، بمعنى الإصرار على " الطبيعة المركبة للمعرفة، وعلى أن دراستها لا يمكن أن تكون إلا دراسة متعددة التخصصات، موحدة الهدف، لا يمكن النفاذ فيها إلى عمق قدرة معرفية معينة إلا بتبين صلتها بالقدرات الأخرى"[45] مما فتح الآفاق نحو النظام النحوي الموازي تأكيدا وترسيخا للنظرة التأليفية التي استحدثت النحو الوظيفي.

المبحث الثالث: النحو الوظيفي والدلالة التصورية.

إن تثبيت الوضعية التواصلية للغة، يدمجها ضمن موضوعات اللسانيات المعرفية التي" تنتمي إلى التقاليد الوظيفية، وهذا يعني أنه بخلاف المقاربات الصورية، لم يعد ينظر إلى اللغة باعتبارها نظاما مستقلا: بل باعتبارها وجها أساسا من وجوه العلوم المعرفية، ومن ثم فإن البنية اللغوية تحلل بقدر الإمكان في إطار الأنظمة والقدرات الأساسية مثل:الإدراك الحسي، والانتباه،..."[46] هذا التقليد الوظيفي في اللسانيات المعرفية، يهتم خصيصا بالتنظيم المفهومي للمعرفة اللسانية، وأثمر منظورا جديدا للغة " باعتبارها رمزا للثقافة والفكر"[47]، وهو أمر يستتبع وجود قواعد ثابتة تؤصل للعلاقة بينهما كما ينقل المتوكل عن ديك(1997)، أنه " على النحو الوظيفي أن يستكشف خصائص العبارات اللغوية المرتبطة بكيفية استعمال هذه العبارات، وأن يتم هذا الاستكشاف في إطار علاقة تلك الخصائص بالقواعد والمبادئ التي تحكم التواصل اللغوي...بمعنى أن العبارات اللغوية وسائل يستخدمها المتكلم لإبلاغ معنى معين في إطار سياق تحدده العبارات السابقة، وموقف تحدده الوسائط الأساسية لموقف التخاطب"[48]، فالنحو له دور وظيفي في إنجاز التواصل عبر ترجمة التصورات بشكل دقيق، مما يعني أن نظرية النحو الوظيفي تقوم على مبادئ أساسية، شغلها الشاغل هو الخطاب، بما يستلزم من تعدد وتداخل عناصر المتكلم والمخاطب والسياق والقصد، تأكيدا على أهمية النظر إلى ظروف الفرد المشارك في الخطاب، لأن البنية التصورية المعبر عنها لا شك تنتمي إلى الفرد مستعمل اللغة، وعلى النحو تمثيل هذه التصورات. فالجانب الوظيفي في النحو حاضر في اللسانيات المعرفية، وله غاية محددة تتمثل في التركيز على تناول اللغة في الاستعمال، ويسعى إلى إقامة الوصف النحوي على أرضية نفسية عصبية، استفادة من نتائج العلوم المعرفية. فاللغة "من وجه، أداة تعبيرية تساعد على نقل المعلومات والاتصال"[49]. فالمستوى التمثيلي سابق ومحفز لإنتاج العبارات، بل إنه متحكم في اختيار الأنسب للموقف التواصلي، ما بين خبر أو إنشاء..، وما يتبع ذلك من اختيارات لاحقة ف"العبارات اللغوية وسائل يستخدمها مستعمل اللغة قصد التعبير عن واقعة معينة، وإنجاز غرض تواصلي معين"[50]. وهذا هو المنحى الذي يصر عليه النحو الوظيفي، إذ يعنى باعتباره جزءا من مشروع اللسانيات المعرفية " بالكيفية التي تدخل بها الوظائف التصورية المعرفية في بنية اللغة عبر علاقة الترميز"[51]. أي ترميز اللغة للفكر. وليس " الترميز من وجهة نظر عصبية سوى طريقة أو إطار لمناقشة الترابطات العصبية. يتكون نحو اللغة من ترابطات عصبية مبنينة بشكل عال، تصل بين المظاهر التصورية والتعبيرية (الصواتية)للدماغ. ويدخل في ذلك المقولات النحوية والوحدات المعجمية"[52]، هذا الربط يحقق غاية اللغة المتمثلة في التواصل باعتباره الهدف الأسمى للنظام اللغوي، مما يزكي الاستعمال الذكي للغة، ويعلي من شأن تحقيق الوظيفة التواصلية، وبروز الحديث عن الوظيفة يأتي محاولة لتخليص اللغة من المنطق الصوري الرياضي، إذ أصر هاليداي على " حصر اهتمامه في الجانب الوظيفي من النحو، أي في تفسير تجسيد الأنماط النحوية للوظائف"[53] مما يعني أن دوره يتمثل في نخل الأشكال النحوية للوقوف على ما تحمله من تصورات ناتجة عن الإدراك، والتركيز على كيفية استعمال اللغة في التواصل باعتبارها نشاطا معرفيا فضلا عن دور تلك الأنماط في إكساب النص اتساقا يخدم تحقيق الفهم الأمثل

للرسالة التواصلية، واهتم هاليداي حسب (النحلة)، بمفاهيم جديدة من مثل شبكة النظام" وهو مصطلح يدل دلالة واضحة على تشابك العلاقات بين عناصر النظام الواحد من جهة، وبين الأنظمة المختلفة من جهة أخرى..بمعنى أن أي نظام يعتمد اعتمادا مباشرا على النظام الذي يقع على يساره (الإنجليزية)أو على يمينه(العربية) [54] فإذا اختار المتكلم العبارة إنشاء كان عليه أن يختار بين أن تكون طلبا أو شرطا أو إفصاحا، وإذا اختار أن تكون طلبا كان عليه أن يختار بين أن تكون أمرا، أو نهيا، أو استفهاما، والجدير بالملاحظة هنا هو أن " شبكة النظام مأخوذة في حقيقة أمرها من وظائف اللغة، ومعبرة عنها، فبنية العبارات اللغوية تعكس إلى حد بعيد المضامين التي تحملها والأغراض التواصلية التي تحققها في طبقات مقامية معينة"[55] وإخضاع التركيب للوظيفة أو للمعنى، جهد أصيل في دراسة اللغة العربية كما هو الأمر عند ابن جني حيث يقول عن الألفاظ: " فإذا رأيت العرب قد أصلحوا ألفاظها وحسنوها، وحموا حواشيها وهذبوها، وصقلوا غروبها وأرهفوها، فلا ترين أن العناية إذ ذاك إنما هي بالألفاظ، بل بما هي عندنا خدمة منهم للمعاني وتنويه وتشريف بها" [56]. ثم يؤكد هذا الاتجاه الوظيفي بالقول أن من عرف أن الألفاظ " جعلت مصايد وأشراكا للقلوب وسببا وسلما إلى تحصيل المطلوب، عرف بذلك أن الألفاظ خدم للمعاني والمخدوم –لا شك–أشرف من الخادم" [57] ثم إن الحديث عن المقام يربط العلاقة بين النحو الوظيفي والتداوليات، لكن الفرق موجود بينهما، ففي التداوليات، يكون الحديث عن الأسئلة الآتية:. "ماذا نصنع حين نتكلم؟ ماذا نقول بالضبط حين نتكلم؟ ولماذا نطلب من جارنا على المائدة ما إذا كان في استطاعته أن يناولنا الملح، مع أن ذلك يبدو بإمكانه؟ من يتكلم إذن ولمن؟ ومع من؟ ولأجل ماذا؟ من تظنيّ أكون حتى تكلّمني هكذا؟ ما الذي يجب معرفته لرفع الإ بهام؟ ما هو الوعد؟ كيف يمكننا قول شيء آخر غير ما كنا نريد قوله؟ هل يمكن أن نقتصر على المعنى الحرفي لقضية ما؟ ما هي استعمالات اللغة، وأي مقياس يحدد قدرة الواقع الإنساني"[58] فهي تتحول " على مستوى البرهنة إلى نوع من مادة ما وراء اللغة وما وراء الدلالة، أي الوعي الذاتي بالأحكام التي تتخذ بالنسبة للرصف والمعنى " [59] بينما المبدأ الأبرز في النحو الوظيفي الذي يهتم بمستويات متعددة كالدلالة والتداول والتركيب والخصائص الصوتية فيتمثل في "كون البنية مصدر اشتقاق الجملة هي البنية الدلالية– التداولية، التي تتخذ دخلا للقواعد المتكفلة ببناء البنية الصرفية–التركيبية: إرضاء لهذا الشرط لا يسوغ أن تتقدم في نحو وظيفي البنية الصرفية–التركيبية على البنية الدلالية التداولية كما هو الشأن في الأنحاء غير الوظيفية"[60] بمعنى إخضاع البنية التركيبية للبنية الدلالية–التداولية في الاتجاه الوظيفي تماشيا مع الغاية من الخطاب المتمثلة في الإبلاغ، ويقدم ذلك المتوكل من خلال المثال الآتي:

– أعطيت هندا كتابا– كتابا أعطيت هندا حيث "تأخير المفعول في الجملة الأولى يعلله أن القصد من إنتاج هذه الجملة إخبار المخاطب بمعلومة جديدة غير متوافرة لديه، في حين تصديره في الجملة الثانية آيل إلى أن القصد من إنتاجها تصحيح إحدى معلوماته باعتبار هذه الجملة ردا على الجملة (بلغني أنك أعطيت هندا قلما)" [61] ويتأكد من وراء هذا الإخضاع الواضح للبنية التركيبية لحساب البنية الدلالية، الرفض القاطع للشكلنة التشومسكية من جانب، والرغبة في الاهتمام بالتواصل من جانب آخر. على اعتبار أن "الوظائف الدلالية والتداولية علاقات أصول لا علاقات مشتقة، فهذه العلاقات هي التي تحدد بمقتضى أسبقية الدلالة والتداول على التركيب، الخصائص الرتبية والإعرابية لا العكس"[62] فالمستوى الدلالي–التداولي مستوى تمثيلي له الأفضلية في اختيار الصيغ الصرفية والتركيبية الناجعة، تأكيدا على "أن اللغة ترميز فعال للمعلومات التي تحملها"[63] وهذه إشارة واضحة إلى الدلالة التصورية، فإذا كانت التعابير اللغوية أدوات، فهذا يعني وجود شيء ما ينقل عبرها، وهذا الشيء لن يكون إلا بنية معينة تكمن فيها تصوراتنا، وحقيقة إدراكنا، وكيفية بنائنا لمعارفنا، وطرق تفكيرنا، وخلاصة تجاربنا. إذ" يتشكل التفكير/العقل والبنية التصورية بواسطة أجسادنا وأدمغتنا وصيغ اشتغالنا في العالم، ولذلك فالعقل/التفكير والتصورات ليست متعالية، أي ليست مستقلة تماما عن الجسد"[64] لهذا السبب، نظر إلى النحو على أنه مجرد تصوير " فالمتكلم عندما يستعمل وحدة أو بنية نحوية مخصوصة، إنما ينتقي صورة مخصوصة، بها ينضد الموقف الحاصل في ذهنه لغاية تواصلية"[65]. فالذهن تبعا لذلك، " يرمز المعلومات في عدد محدود من القوالب التمثيلية المتمايزة على أساس التمثيلات التي تحللها أو صور البيانات المعرفية التي تصلها أو تشتقها " [66] ويشرح غاليم طريقة تواصل هذه القوالب، والذي يتم" عبر القوالب الوجاهية التي تستعمل صورة من صور البنية اللغوية لخلق صورة أخرى مثل تحويل المعلومات السمعية إلى بنية صوتية، وقد بينت عدة تجارب كيف أن الأنساق المركزية تستخدم أنساق الدخل للقيام بوظائفها المعرفية في التخييل أو التفكير"[67]، فتفاعل القوالب سواء قوالب أنساق الدخل كالسمع والبصر، أو قوالب الأنساق المركزية –مستوى الفكر–، يؤدي إلى بنية

تصورية تعكس كل تجاربنا وخبراتنا المكتسبة من خلال التفاعل الذكي مع العالم، وهذا التنوع في القوالب هو الذي يؤدي إلى وصف حدث واحد بطرق ورموز مختلفة حسب درجة الإدراك والغاية التواصلية. وهو أمر كانت النظريات الشكلية قاصرة عن تحقيقه حينما ارتقت بالنحو فوق حقيقته، بأن جعلته غاية في حد ذاته، بحصر الاهتمام بالجوانب الصرفية والتركيبية والدلالية دون إيلاء الجانب التداولي الذي اعتبر جانبا تأويليا المكانة التي يستحقها، لذلك لعب الجانب الوظيفي دورا بارزا في إعادة الاعتبار للجانب الإبلاغي للغة، ولكيفية استعمالها في التواصل، كما يشير المتوكل إلى أنه " مما لا يمكن إنكاره، أن النّظريّات الوظيفيّة أو بعضها على الأقل، كنظرية النّحو الوظيفي، قد بلغت مبلغا معقولا في سعيها نحو إحراز كفاية التفسير، بربطها دراسة اللّغة بقضايا الاكتساب والكليات اللغوية. "[68]. هذا التفسير الذي ساهم بشكل كبير في الاهتمام باللغة على أساس الواقعية النفسية العاكسة لطبيعة التصورات المؤسسة **للبنية التصورية** التي تترجم " المستوى الذهني الذي تتبلور فيه عمليات التفكير والتخطيط، وتتصل التصورات بالإدراك والعمل، ويتم فهم الأقوال اللغوية في سياقاتها الذريعية والموسوعية باعتبارها البنية الذهنية التي ترمزها اللغة في صورة قابلة للتواصل"[69]، لذلك يتأسف جاكندوف على إهمال البنية التصورية ملقيا اللوم على التقاليد الفلسفية السائدة قائلا " ورغم أن الفكرة القائلة بأن اللغة مرآة العقل ضاربة في القدم، إلا أن الممارسات الفلسفية الحالية في مجملها لا تشجعنا على اكتشافه، فتقاليد العلوم الدلالية التي ترعرع أغلبنا في كنفها تضرب جذورها في المنطق الرياضي"[70]، هذا المنطق الرياضي يستطيع أن يرمز العالم البسيط بتعابير مفردة، لكنه بالتأكيد، سيقف مشلولا أمام الاستخدام الفعلي للغة بأساليبها المختلفة، ومقاصد مستعمليها. وهو ما لاحظه جاكندوف مع أفعال لها دلالات مختلفة لا يمكن تفسيرها دون الحفر في البنية التصورية، وكانت تلك الأفعال منطلقه في التأصيل لتلك البنية القادرة وحدها على تفسير تعدد دلالات تلك الأفعال، مثل: "فعل to keep، الذي له دلالات متعددة كالتمسك بالموقع: أبق الكتاب على الرف. والإكراه: أبق بيل في العمل....ثم يضيف جاكندوف، وفي غياب تفسير نحوي يبقى الخيار الوحيد الذي يمكن أن أفكر فيه، هو أن مثل هدا التعميم ناتج عن البنيةالتصورية التي تعبر عنها الأنظمة النحوية والمعجمية"[71] تلك البنية لها أنظمتها الدلالية التي اكتسبت دورا حاسما في ترجمة التصورات، إذ إن " استعمال اللغة الفعلي يتطلب استخدام معلومات متنوعة: مرئية أو مسموعة أو ذاكرية أو فكرية عامة. وطبيعي أن يكون مجال الآليات المسؤولة عن هذا الاستخدام، أقل خصوصية من مجال الدخل"[72] بمعنى أن الدلالة التصورية " تقدم تصورا عاما لتعالق الأنساق (اللغوية والإدراكية والتصورية)وتفاعلها عبر الوجاهات في بيئة الذهن/الدماغ الشاملة، تبعا لهندسة واضحة أساسها علاقة التوازي بين مختلف الأنساق وتقييد بعضها للبعض الآخر"[73] فالأمر لا يتعلق بجزر منعزلة متضادة، بل بملكات متداخلة ومتكاملة، تسعى إلى تحقيق التواصل الأمثل، استفادة من القدرات الأولية التي يكتسبها الأنسان عبر تجاربه المختلفة، وهي التي تبلور إمكاناته. حيث يشير لايكوف إلى أن البنية التصورية تنشأ" من تجربتنا الحسية الحركية، ومن البنيات العصبية التي تحدثها...ومفهوم البنية ذاته في نسقنا التصوري تخصصه أشياء من قبيل خطاطات الصور والخطاطات والحركية"[74]، فلا محيد عن وسائل الإدراك في نشأة البنية التصورية، انطلاقا من النتائج التجريبية المنصب تركيزها على اكتشاف عمل الذهن وطريقته في المقولة، والتي أثبتت أن البنية التصورية" نسق مركزي من أنساق الذهن، وهي ليست جزءا من اللغة في حد ذاتها، بل هي البنية الذهنية التي ترمزها اللغة في صورة قابلة للتواصل"[75] لما لها من خاصية التأليف، حيث " تعتبر البنية التصورية التي ترمز معاني الكلمات والمركبات والجمل نسقا تأليفيا توليديا صوريا مستقلا عن البنية التركيبية. ..بأولياته المتمثلة في كيانات مثل الأفراد والأحداث والأمكنة والخصائص..ومبادءه التأليفية القائمة على علاقات مثل الروابط المنطقية والدالات وموضوعاتها..والنعوت ومنعوتاتها" [76] تلك المبادئ والأوليات تعمل وفق الوجاه الذي هو" أداة صورية يتفاعل بواسطتها نسقان مستقلان أو أكثر. .ويمكننا مثلا من استخدام أنساقنا الحسية–الحركية لاستقبال الكلام وإرساله، كما هو الحال في الوجاهين الواصلين بين اللغة والنسقين السمعي والنطقي، ومن استخدام اللغة للتعبير عن إدراكاتنا وأفكارنا كما هوالحال في الوجاه الواصل بين المعنى اللغوي والنسق البصري(الفضائي)أو الوجاه الواصل بين المعنى اللغوي ونسق الاستنتاج الذي تقوم عليه عمليات التفكير"[77]، وهو ما يشرحه الزناد في نحو لانقاكر قائلا" يعتمد لانقاكر مفهوم التصوير في تحليل المعنى– بدل المنطق الصوري– ولا يقبل الانفصال بين الإعراب والدلالة خلافا لسائر النظريات التي تتصور الإعراب مكونا شكليا قائما بذاته"[78]، فلانقاكر يرفض النظريات الخارجية للمعنى لأنها تبعد بذلك اللغة عن وظيفتها لصالح المنطق والرياضيات، والنظريات الشكليةالتي تكبل اللغة ويحصرها في جانب التكوين، فكلاهما يعجزان اللغة ويبعدانها عن وظيفتها المركزية

المتمثلة في التواصل. بل اعتبر لايكوف المنطق الصوري غير ذي معنى حين أقر أن "البنيات الذهنية دالة داخليا بموجب ارتباطها بأجسادنا وبتجربتنا المجسدة، ولا يمكن تخصيصها بشكل كاف اعتمادا على رموز غير ذات معنى"[79]، لكل ما سبق، اعتبر النحو الوظيفي أداة فعالة لتجسيد طبيعة البنية الذهنية، إذ ينهض باللغة ويقدرها حق قدرها، لتكون جسرا تعبر من خلالها كل التصورات في تواؤم تام بينها وبين اللغة باعتبارها" نشاطا عرفانيا في ذاتها، وحاملا لتمثلات عرفنية، ولذلك وجب تناولها من زاوية خصائصها الدلالية العرفنية، ومن زاوية تفاعلها وسائر الملكات العرفنية من قبيل الإدراك والتذكر والتصوير والعمل والتجسدن وتمثيل البيئة والسياق"[80]، أي العمل الجاد على اكتشاف التساوق بين المخرجات اللغوية والمدخلات الحسية وكيفية انتظامهما تصورات في الذهن، لتكون " البنية الدلالية، أي المعلومات المحملة عن طريق اللغة مصوغة بالطريقة التي ينظم بها الذهن التجربة"[81] مترجمة لدرجة وكيفية الفهم والإدراك، وكاشفة للتمثلات وكيفية انتظامها في الذهن، أي كيف تتصور اعتمادا على المدخلات الحسية والتجارب التي يعيشها الفرد متفاعلا مع محيطه، فاللغة أصبحت جسرا واصلا "بين نظرية اللغة ونظريات القدرات العرفانية الأخرى مثل الإدراك البصري والتحكم في حركة أعضاء الجسم"[82]، فهي قدرات ذاتية معبرة عن فكر متجسد، مما يوجد تآلفا وانسجاما بين الأنساق اللغوية والأنساق المعرفية، ويساهم في تأسيس البنية التصورية أو التصور البنائي الذي " يرى أن المعرفة نتيجة بناء ذهني، وأن اللغة والإدراك والمعرفة أشياء تابعة لبعضها بشكل غير قابل للانفصام"[83] لتساهم جميعها في تحقيق الوظيفة المميزة للأنساق المركزية وهي تثبيت المعتقد الإدراكي أو العلمي "، ويتم ذلك عن طريق النظر بكيفية متزامنة في التمثيلات التي تقدمها مختلف أنساق الدخل، وفي المعلومات المتوافرة في الذاكرة، للوصول إلى أفضل فرضية ممكنة حول الصورة التي يجب أن يكون عليها العالم"[84] وقد أثبت علم الأعصاب التفاعل والتساوق بين تلك العناصر، وبذلك تكون اللغة مرآة عاكسة للبنية الفكرية حيث " تخصص نظرية الدلالة التصورية المعنى باعتباره تمثيلات ذهنية مبنية في صورة تنظيم معرفي هو البنية التصورية، بمعنى إدماج كل العناصر المعرفية والسياقية التي تؤثر في امتلاك رؤيا، وتساعد على فهم الأقوال دون تقوية عنصر لغوي أو غيره على حساب تهميش عنصر آخر لأن " تثبيت المعتقد يتم عن طريق استغلال كل المعلومات المتوافرة لدى الذات، بغض النظر عن المجالات المعرفية التي تستخلص منه هذه المعلومات"[85] عكس ما هو سائد في الأعراف الفلسفية التقليدية والنظريات اللغوية الشكلية. إن النحو الوظيفي محاولة جادة لإنصاف اللغة والفكر عبر الإيمان بجدواهما معا في صناعة مناخ تواصلي فعال، قائم على أسس معرفية، تستهدف في المقام الأول، تحقيق التأثير المرغوب. ليكون الإنسان بما يمتلكه من معارف وتجارب وقدرات إدراكية، في قلب عملية صناعة الخطاب عن وعي وإدراك. فاختيار عنصر لغوي وإفراغ المحتوى داخله، لا بد أن يكون موجها لحمل رسالة بدقة متناهية ليترجم نمط التصور ووالهدف من التواصل، وتلك هي حقيقة المعنى كما عرفها عبد القاهر الجرجاني قائلا: " يراد بها الغرض، والذي أراد المتكلم أن يثبته أو ينفيه مثل زيد كالأسد، فيه تشبيه الرجل بالأسد. أما (كأن زيدا الأسد)، فتفيد تشبيهه أيضا بالأسد، إلا أنك تزيد في معنى تشبيهه به زيادة لم تكن في الأول، وهي أن يجعله من فرط شجاعته وقوة قلبه، وأنه لا يروعه شيء، بحيث لا يتميز عن الأسد، ولا يقصر عنه، حتى يتوهم أنه أسد في صورة آدمي..كانت هذه الزيادة وهذا الفرق بما توخي في نظم اللفظ وترتيبه"[86] تدليلا على أن النظم خادم للتصور ومفصح عنه بدقة متناهية باعتباره " هيئة يحدثها لك التأليف، ويقتضيها الغرض الذي تؤم، والمعنى الذي تقصد"[87] فاللغة جزء من النظام المعرفي للإنسان يعبر عن كيفية فهمه وإدراكه، وعن مقصده من التخاطب. لذلك نظر إلى "دراسة اللغة باعتبارها جزء من الذهن/الدماغ البشري"[88]، بحيث لا ينحصر دورها في ترميز العالم الخارجي كما في التوجه ذي النزعة الموضوعية التي استبعدت دراسة التنويعات اللغوية لضبابيتها، بل نظر إليها " باعتبارها مصدرا للمعطيات التي يمكن أن تقود إلى مبادئ عامة بصدد الفهم" [89] لهذا السبب لم يعد ذا جدوى، الحديث عن الاستعمال الحقيقي والاستعمال المجازي للغة، باعتبار أن المعنى نتيجة تفاعل عناصر مختلفة، والأمر الآخر الأهم في التصور البنائي هو "أن استعمال اللغة نشاط إبداعي أساسا، مثلما هو الحال بالنسبة لفهمها...وتبعا لهذا التصور، فالتراكيب الدلالية اللغوية لا يمكنها أن تكون صادقة أو كاذبة موضوعيا في العالم الواقعي"[90] لأن المعنى نتيجة للتفاعل، وللتصور الفردي الخاضع لدرجات الإدراك ووضوحه، وللذاكرة وقدرتها على الاسترجاع والربط بين مجمل الأحداث. ف"التصورات تحددها عوامل نفسية وثقافية مرتبطة بالتجربة"[91] فالمعنى كله ذاتي وليس موضوعيا، بحيث يعكس طبيعة التجربة الذاتية، وهذه هي النزعة التي جاءت بها المدرسة التجريبية التي اعتبرت أن " الإنسان جزء من محيطه وليس معزولا عنه، فهي ترتكز على التفاعل المستمر مع المحيط الفيزيائي ومع الناس الآخرين، كما تعتبر

أن هذا التفاعل مع المحيط ينتج تغييرات متبادلة. إنك لا يمكن أن تنشط داخل محيطك دون أن تغيره أو يغيرك" [92] وهذا مدخل أساسي للحصول على الفهم وتأسيس مبادئه، ومعلوم أن "ميدان التجربة الفردية له بنية معينة وهي تُخلف مع طائفة من المعاني والتأكيدات بوصفها أمرا لا تنكر حقيقته، وأن الخطأ الأساسي للفكر الحديث جدا هو رفضه إدراك أن الشيئية والإدراك الحسي يسيران معا جنبا إلى جنب"[93] باعتبار أن التجربة نسق مهم جدا في بناء التصورات وفهمها لما تساهم به من أطر لبناء الخطاطات الذهنية، وهو ما تهتم به نظرية البنية التصورية بحيث تتناول " طبيعة التصورات وكيفية تحديدها بالإضافة إلى كيفية نشوئها وبنيتها وارتباط بعضها ببعض"[94] أي الانشغال بسؤال الكيفيات، الذي يستقصي منبت الدلالة، ليحصرها في الآليات الجسدية المتأثرة بالبنية الطبيعية للتجربة التي تحدث تفاعلا بين الدخل الخارجي والآليات الداخلية لإنتاج المعلومة، بحيث تترجم اللغة طبيعة وبنية الفكر" فعندما ندرس اللغة، فإننا ندرس بالضرورة بنية الفكر، فرصد العلاقات المعجمية الدلالية، يعني إذن رصد السبب الذي يجعل الناس يعتبرون بعض الأشياء متعالقة دون البعض الآخر"[95] وبذلك تعطى المعنى للأشياء، كما ينقل البوعمراني عن جونسن قوله" لا معنى للأشياء خارج إدراكنا لها ومقولتنا لها، هذه المقولة المرتبطة بنظامنا التصوري ونظامنا الثقافي وبوجودنا المتجسد في العالم"[96] فكل هذه العوامل تساهم ببنينة تصوراتنا للمقولة. وبصناعة المعنى على أساس هذا الإدراك، وبثه في اللغة التي تشمل " نوعين من العناصر الدالة، وحدات معجمية تحيل على الأشياء والأحداث والخصائص مثل الأسماء والأفعال والصفات .. ووحدات نحوية تربط الأولى ببعضها وبعالم الخطاب مثل الروابط والحروف والإشاريات" [97] تماشيا مع طبيعة الذهن المزود" باستعدادات قبلية لربط أنماط خاصة من المعاني بعناصر نحوية وبنيات تركيبية.. هكذا تكشف اللغات أن الصرفيات والتراكيب النحوية ترمز أنماطا مخصوصة من التصورات كسمة الجمع في الأسماء وعلاقات الملكية"[98] فاستعمال النظام اللغوي خاضع للبنية التصورية وعاكس لكيفية تنضيد المدركات فيها، وهي التي تسخره باعتباره قدرة معرفية من قدراتها لحمل تمثلاتها بطريقة معينة.بمعنى أن " العناصر اللغوية تقدم مخططا عاما للتجربة ويعتبر هذا المخطط العام نتيجة لمخطط عام في المستوى التصوري غيراللغوي" [99] الذي يتأسس على مبادئ خاصة، هي المبادئ المشكلة لعمل البنية التصورية.

المبحث الثالث: مبادئ البنية التصورية.

إن البنية التصورية باعتبارها تمثيلا ذهنيا يجسد طبيعة المعرفة وكيفية تنظيمها، تمثل " إحدى الأطر الذهنية التي تمكن من تخزين التجربة والربط بينها وبين الذاكرة المرحلية وخطط العمل المستقبلي، كما أنها القاعدة الصورية لعمليات التفكير المنطقي والاستكشافي على حد سواء "[100]، وهي أشمل من اللغة بحيث تقوم " على نسق تأليفي مستقل عن البنية التركيبية وأغنى منها إلى حد بعيد، أولياته كيانات تصورية(أو مقولات أو أنماط أنطولوجية كبرى) كالموضوعات objects والأوضاع situations والمسارات والخصائص والمقادير والأمكنة والأزمنة"[101]، بحيث تمثل هذه الكيانات الأساس الصلب للبنية التصورية التي يتأسس عليها بناء المعنى باعتبار طابعها التأليفي، بالإضافة إلى أنها تمثل المنطلق لفهم الأقوال اللغوية لقيامها" على أوليات كالأفراد والأحداث والمحمولات والمتغيرات والأسوار، ومن خلاله يتم فهم اللأقوال اللغوية في سياقاتها، بما في ذلك الاعتبارات الذريعية والمعرفة الموسوعية"[102]، وبعد نضج هذه البنية، تأتي القدرة اللغوية المكونة من " مكونات ثلاثة رئيسة، هي البنية الصواتية والبنية التركيبية والبنية الدلالية(التصورية) كبنيات قالبية مستقلة متوازية، لكن باعتبار آخر، بنيات متفاعلة في ما بينها عن طريق وجاهات تتيح التفاعل الضروري لاشتغال القدرة اللغوية" [103]، لكي تعكس طبيعة التصورات فيها، وتبرز مجموعة من المبادئ المؤسسة لتكوين وتنضيد الأفكار باعتبار أنها" تتضمن كيانات يمكنها أن تمثل كيانات أخرى، فنحن نتعرف على رسم خشبي صغير باعتباره نموذجا لعمارة محسوسة. ..إذا كانت هناك بعض الأشكال والأبعاد المشتركة بين الإثنين، فنقيم ترابطا بين رسم ينتمي إلى مواضعة فنية من نوع معين وبين شخص أو شيء أو حدث يتعلق بعالم من عوالم التجربة"[104] عن طريق التشابه بين ما يخزنه الذهن وما تبرزه أنساق الدخل التي تحرك المعرفة الموجودة سلفا، والمبنية وفق تجارب سابقة، قادرة على موضعة التجارب اللاحقة، والآلية الأبرز لتحقيق ذلك هي الاستعارة التي تقوم" على عملية إسقاط لترسيمة الميدان المصدر على الميدان الهدف.فنحن نفهم الحياة عن طريق إسقاط خاصية الرحلة عليها"[105] هذا الإسقاط التي تتحكم فيه ثقافتنا وتجاربنا بانتقاء عنصر التشابه الذي يجمع بين الكيانين والذي تستوعبه وتخزنه البنية التصورية بشكل مسبق، ثم تفرغ تمثلها

عند الحاجة في الشكل اللغوي، إذ" البنية التصورية سابقة ابستمولوجيا عن البنية اللغوية، سواء فيما يتعلق بمتعلم اللغة أو بمسألة التصور على العموم"[106] ودور اللغة يتمثل في الكشف عن هذه البنية التصورية كما يؤكد لايكوف وجونسون قائلين" لواضعي القواميس والمختصين في المعنى هموم مختلفة عن همومنا، فنحن نهتم بالطريقة التي يفهم بها الناس تجاربهم، وننظر إلى اللغة باعتبارها مصدرا للمعطيات التي يمكن أن تقود إلى مبادئ عامة بصدد الفهم...وقد وجدنا أن لهذه المبادئ في الغالب طبيعة استعارية، وتقتضي فهم نوع من التجربة من خلال نوع آخر"[107] من التجارب، تأكيدا على أن المعنى نتاج حركة الجسد وأنه" مشتق من التجربة البشرية المتجسدة، وهو ينبثق بصفة دينامية من الخطاب والتفاعل الاجتماعي بدلا من كونه شيئا ثابتا مفروضا" [108] والمطلوب تتبع الكيفية التي يعبر بها الناس عن تجاربهم من خلال اللغة، مما يقود حتما إلى الوقوف على المبادئ النفسية الكامنة وراء تشفير المعاني والمتحكمة في البنية التصورية، هذا التتبع لازم للتقعيد العلمي، إذ " ينزع البحث في الدلالة المعرفية إلى الاهتمام بنمذجة الذهن البشري أكثر من اهتمامه بالتحقيق في الدلالة اللغوية"[109] وهذه النمذجة لا تتأتى على وجهها الصحيح إلا بالتتبع المطرد، لأنه كما أبرز غاليم،" يشترط في كل مبدأ تصوري انطباقات مطردة في أنساق مختلفة من الدلائل، بما فيها الأنساق اللغوية،... كلما حددنا بما فيه الكفاية مجموعة من المبادئ التصورية، كلما تفادينا العلاقات الاعتباطية بين المبادئ والكيانات"[110]. مما ينتج قواعد ثابتة لكيفية عمل البنية التصورية بعيدا عن الاستنتاجات العابرة، المتسمة بالعجلة والاجتزاء، فأي ربط بين الشكل اللغوي والتصور، لا بد له من نظام، كما يؤكد جاكندوف قائلا: " يرتسم الشكل النظمي في البنية التصورية مباشرة بفضل قواعد الترابط" [111]، وهذا الترابط بين البنيتين لا بد له من مبادئ ناظمة تضمن الانتقال من بنية مفترضة إلى بنية واقعية يبرزها غاليم كالآتي:

مبدأ المشابهة: أي المشابهة بين كيانين ويشترط فيه أن "يستجيب لشرط العمومية، إذ يبدع الناس في كل الثقافات نماذج تدل على تمثيل جوانب متنوعة من تجربتهم"[112] عبر عملية الاستحضار المستمر لشكل قديم، بغية تصنيف ونمذجة شكل جديد عن طريق الاستعارة، التي "تخلق المشابهات عن طريق تفاعل الإنسان مع عالمه التجريبي، وهي تقوم على فهم ميدان تصوري ما عن طريق ميدان تصوري آخر، ومن هنا يمكن للاستعارة أن تخلق العالم بخلقها لمشابهات جديدة"[113] إنها آلية معرفية لا يسعني عنها في كشف التمثلات والتصورات المساعدة على مقولة الأفكار والمشاعر...

مبادئ المجاورة التصورية

-علاقة السبب بالمسبب: لا شك في الأهمية البالغة لعلاقة السبب بالمسبب، إذ " إننا نستنتج بكيفية مطردة الأسباب من المسببات، والمسببات من الأسباب، فنستنتج إمكان نزول المطر من السحب السوداء"[114]، لأن "النسق التصوري متحفز باستمرار لاكتشاف الأسباب، ومختلف الأجهزة المعجمية والصرفية التي تقدمها اللغة للإحالة على العلاقات السببية، ليست إلا مؤثرات سطحية للنواة التصورية التي يقوم عليها فهمنا للعلاقة السببية"[115]

-علاقة المنتج بالمنتوج: "مبدأ يقيم علاقة إحالية تصورية بين المنتوجات ومنتجها"[116] بمعنى أن " البنية التصورية تقوم على مبادئ تأليفية ذاتية، كالروابط المنطقية وعلاقات الدلالات بموضوعاتها، والأسوار بالمتغيرات المربوطة، والعلاقات النعتية، وعلاقة الأقوال باقتضاءاتها" [117] فهذه العلاقات مستنبطة أساسا من العلاقات المجازية في استعمال اللغة، تأكيدا على البعد التصوري ودوره في التمكين لصناعة المبادئ على اعتبار أن " التصورات الاستعارية والكنائية لا تهم اللغة فقط، ولكنها تعتبر أدوات لبنينة النسق التصوري والنشاطات اليومية التي تنجزها، والتغيرات التي يدخلها إبداع الجديد من هذه التصورات في النسق التصوري،. .. وتؤثر في الكيفية التي ندرك بها العالم اعتمادا على أن العلاقات –المشابهات والمجاورات– الواردة بالنسبة للتصورات الاستعارية والكنائية علاقات يتحدد إدراكها والتعامل معها تبعا للنسق التصوري"[118] بمعنى أن التصورات الاستعارية تمثل رافدا ثمينا يسعف المتكلم في ترجمة التصورات عبر تجسيدها في صور متشابهة ومعهودة، يتشارك المتكلم والمستمع معرفتها وإدراكها، وتشغل كأداة فعالة في تنشيط وإسعاف العملية التواصلية لتكون أكثر نجاحا وصحة، فهي من وجهة نظر الدلالة المعرفية، آلية فكرية جبارة تكشف الكيفية التي يفكر به الإنسان، ولا ينحصر دورها في زخرفة الكلام وتزيينه كأداة لغوية شكلية. لأن الدلالة

المعرفية حتمت " وجوب معالجة معاني الكلم باعتبارها تمثيلات ذهنية مستنبطة"[119]، ومن ثم فكل الاستعمالات اللغوية سواء كانت حرفية أو مجازية، تتظافر لإبراز هذه التمثيلات الذهنية التي تمثل البنية التصورية التي تحوي المعلومات اللغوية وغيرها. على اعتبار أن كل معاني الكلم حرفية وغير حرفية ما هي في حقيقتها إلا "تعابير من البنية التصورية، بمعنى أنه لا يوجد شكل للتمثيل الذهني مخصص للمستوى الدلالي لمعاني الكلم وحدها، يكون متميزا عن المستوى الذي تتناغم فيه المعلومات اللغوية والمعلومات غير اللغوية"[120].

خلاصة القول، لقد ساهمت دراسات علم النفس المعرفي بتوطين اللغة كملكة أساسية من ملكات الذهن المتعددة، ومن ثم فإنها تمثل بيئتها الذهنية بما تحمله من تصورات تعكس التجارب الفردية والخبرات المتراكمة وتمثل سندا أصيلا لمعرفة طبيعة التصورات الفردية.

الهوامش:

[1] عبد السلام عابي، النذير ضبعي، 2018، ص. 124 .

[2] اللسانيات واللغة العربية، نماذج تركيبية ودلالية، ص40

[3] جاكندوف، راي، 1983، ص، 54

[4] FATIMA SADIQI AND MAHA ENNAJI -1992-P. 40

[5] لايكوف و جونسون، 1999، ص، 625

[6] لايكوف و جونسون، 1999 ص، 625

[7] غاليم 2021، اللغة بين ملكات الذهن.ص170.

[8] جاكندوف، راي، 1983، ص، 63

[9] الزناد، الأزهر، 2010 ص، 31

[10] غاليم، محمد، 2015 ، ص22

[11] جاكندوف، راي، 1983، ص، 14

[12] لايكوف و جونسون، 1999، ص.347

[13] حمو الحاج ذهبية، 2013، ص39

[14] الزناد، الأزهر، 2010، ص، 47

[15] FATIMA SADIQI AND MOHA ENNAJI – 1992-P27

[16] النص والخطاب والإجراء، ص82.

[17] حافظ اسماعيلي علوي، احمد الملاخ، 2009، ص107

[18] حمو الحاج ذهبية، 2013، ص.31

[19] لايكوف و جونسن 1999، ص، 625

[20] االلسانيات واللغة العربية، نماذج تركيبية ودلالية، ص، 40

[21] عبد السلام عابي، النذير ضبعي، 2018، ص.125

[22] لايكوف، و جونسن، 1999، ص، 621، 622بتصرف

[23] لايكوف و جونسن، 1999، ص.625

[24] اللسانيات واللغة العربية، نماذج تركيبية ودلالية، ص، 56

[25] الزناد، الأزهر، 2010، ص، 46

[26] القدرة اللغوية، مقاربة تفسيرية لإنتاج المعاني وأحداثها الكلامية، دراسة وصفية تحليلية، ص28

[27] غاليم، محمد، 2021، اللغة بين ملكات الذهن.ص107.

[28] القدرة اللغوية مقاربة تفسيرية لإنتاج المعاني وأحداثها الكلامية، دراسة وصفية تحليلية، ص 40

[29] النص والخطاب والإجراء، ص 102.

[30] غاليم، محمد، 2021، اللغة بين ملكات الذهن. ص110.

[31] غاليم، محمد، 2021، اللغة بين ملكات الذهن.ص24.

[32] teun a. van DIJK– 1977–P. 167

[33] لايكوف و جونسن، 1999، ص، 660.

[34] غاليم، محمد، 2021، الأنموذج المعرفي إطارا للتواصل. ص193.

[35] الزناد، الأزهر، 2010، ص.32.

[36] المتوكل، أحمد، 2022، ص.50.

[37] غاليم، 2021 اللغة بين ملكات الذهن ص15.

[38] غاليم 2021، لأنموذج المعرفي إطارا لاتصال العلوم. ص 201.

[39] النص والخطاب والإجراء. ص 84.

[40] المتوكل، أحمد، 1993، ص8، 9، 10

[41] المتوكل، أحمد 2022، ص، 46، 47

[42] نفسه، ص49

[43] غاليم، محمد، 2021، اللغة بين ملكات الذهن.ص22.

[44] نفسه، ص23.

[45] غاليم، محمد، 2021، الأنموذج المعرفي إطارا لاتصال العلوم.ص11، 12.

[46] حافظ اسماعيلي علوي، 2021، ص، 53

[47] حمو الحاج ذهبية، 2013، ص.30.

[48] المتوكل، أحمد، 2022، ص.50، 51.

[49] اللسانيات واللغة العربية نماذج تركيبية ودلالية، 326

[50] المتوكل، أحمد، 2022، ص.15.

[51] لايكوف و جونسون 1999، ص، 651

[52] نفسه، ص، 651

[53] علم اللغة النظامي، مدخل إلى النظرية اللغوية عند هاليداي، ص117

[54] نفسه، ص، 119

[55] المتوكل، أحمد، 2022، ص11

[56] الخصائص، ج1/217.

[57] نفسه، ج1/220.

[58] فرنسواز أرمينكو، المقاربة التداولية، تر:سعيد علوش، مركز الإنماء القومي، ص7

[59] النص والخطاب والإجراء.ص86.

[60] المتوكل، أحمد، 2022، ص، 18

[61] أحمد المتوكل، المنحى الوظيفي في الفكر اللغوي العربي، الأصول والامتدادات ص20.

[62] المتوكل، أحمد، 2022، ص، 19

[63] اللسانيات واللغة العربية، نماذج تركيبية ودلالية، ص، 332

[64] لايكوف و جونسون، 1999، ص192

[65] الزناد، الأزهر 2010، ص، 100

[66] غاليم، محمد، 2007، ص. 24

[67] غاليم، محمد، 2007، ص.25،

[68] المتوكل، أحمد. المنحى الوظيفي في الفكر اللغوي العربي، الأصول والامتداد.ص51.

[69] غاليم، محمد، 2021 الأنموذج المعرفي إطارا لاتصال العلوم. ص179 .
[70] جاكندوف، راي، 1983، ص، 47
[71] جاكندوف، راي، 1983، 39
[72] غاليم، محمد، 2007، ص.23
[73] غاليم، أحمد، 2021، الأنموذج المعرفي إطارا لاتصال العلوم. ص183.
[74] لايكوف وجونسون، 1999، ص، 128
[75] غاليم، محمد، 2007، ص.33
[76] غاليم، محمد، 2021، الأنموذج المعرفي إطارا لاتصال العلوم، ص178.
[77] نفسه، ص184.
[78] الزناد، الزهر، 2010، ص، 98
[79] لايكوف وجونسون، 1999، ص، 129
[80] الزناد، الأزهر، 2010، ص، 27، 28
[81] غاليم، محمد، 1987، ص92
[82] جاكندوف، راي، 1983، ص، 4تراجع
[83] غاليم، محمد، 1987، ص.101
[84] غاليم، محمد، 2007، ص، 23
[85] نفسه، 2007، ص23
[86] دلائل الإعجاز، ص258، بتصرف.
[87] نفسه، ص250.
[88] غاليم، محمد، 2021، اللغة بين ملكات الذهن. ص315.
[89] لايكوف وجونسن 1980، ص146.
[90] غاليم، محمد، 1987، ص، 101
[91] غاليم محمد، 1987، ص، 93
[92] لايكوف وجونسن 1980، ص243.
[93] أوغدن ورتشاردز، 1923، ص، 274
[94] غاليم، محمد، 1987، ص، 93
[95] غاليم، محمد، 1987، ص93
[96] البوعمراني، محمد الصالح، 2015، ص15.
[97] غاليم، محمد، 2021، الأنموذج المعرفي إطارا لاتصال العلوم.ص141.
[98] غاليم، محمد، 2021، الأنموذج المعرفي إطارا لاتصال العلوم.ص142.
[99] نفسه، ص144.
[100] غاليم محمد، 2007، ص، 33
[101] غاليم، محمد، 2021، اللغة بين ملكات الذهن.ص231.
[102] غاليم، محمد، 2021، اللغة بين ملكات الذهن.ص230.
[103] نفسه .ص230..
[104] غاليم، محمد، 1987، ص 107 .
[105] البوعمراني، محمد الصالح، 2015، ص15
[106] غاليم، محمد، 2007، ص، 33 .
[107] لايكوف و جونسن، 1980، ص، 145-146 .

[108] بن دحمان، عمر، 2012، ص42.

[109] نفسه، ص42.

[110] غاليم، محمد، 1987، ص.102 .

[111] جاكندوف، راي، 1983، ص، 207

[112] غاليم، محمد، 1987، ص109مهم

[113] البوعمراني، محمد الصالح 2015، ص15.

[114] غاليم، محمد، 1987، ص114

[115] غاليم، محمد، 1987، ص115

[116] نفسه، ص116

[117] غاليم، محمد، 2015، ص24

[118] غاليم، محمد، 1987، ص102

[119] جاكندوف، راي، 1983، ص، 211

[120] نفسه، ص. 212